بيرم وفن القصة القصيرة

بقلم: د / سعيدة محمد رمضان

كثيراً ما تطغى شهرة الأديب فى نوع من الأنواع الأدبية، فيُقْرَن بهذا النوع حتى لا يُذكر إلا به، مهما تعددت مواهبه، وتعددت الأنواع التى خاض غمارها، وبرع فيها.

ونقصر الكلام هنا عن بيرم التونسى، الذى اشتهر فى العصر الحديث بالزجل شهرة «ابن قزمان» فيه فى الزمن الفائت، ولذا فإن الدراسات والمقالات، قليلاً ما تعرضت لنواحى الإبداع المختلفة عنده، مثل المقامة.. والأوبريت.. والقصيدة.. والرواية.. والقصة القصيرة.. والواقع أن كل نوع وشكل من هذه الأشكال، جدير بأن يتناوله الباحثون، استكمالاً لزوايا هذا الأديب العجيب.

والشىء اللافت للنظر، أن الدراسات التى تناولت بيرم، لم تتناول مسألة إسهامه فى كتابة القصة القصيرة.

«وإن كان بعضها عرض لما كتب من قصص زجلية» **ما عدا دراسة د/ محمد صالح الجابرى عن «محمود بيرم التونسى فى المنفى: حياته وآثاره»** فى مجلدين، وتفسير ذلك، بأن بيرم فى خلال سنوات المنفى فى تونس، نشر العديد من القصص القصيرة، التى جمعها الجابرى، فى المجلد الثانى من رسالته، وبيان هذه القصص:

رسالة الغفران	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/١/٢
العقاقير	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٢/٢
القاضى الصغير	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٥/٢٠
بعد الميعاد	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٦/٦
دعوة	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٦/١٣
بركة	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٦/١٨
حدائق شارع باريس	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٣/٧
زنوج باريس	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٢/٢١
أوتيل أبي القاسم	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/١/٢٩
الجارة المجهولة	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/١/٢٣
السكران	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٢/٢٨
الانتقام	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٣/٢٨
الأحباب	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٤/٢٥
الصديق الرذل	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٥/٩
المرأة القبيحة	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٥/٢٣
المرأة	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٦/٧
وبوزة فين «زجاجة خمر»	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٧/٤
الأميرة التركية	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/٨/٨
المهدي أو الصوت القاتل	نشرت في الزمان في ١٩٣٣/١٠/١٠

obeikandl.com

القواد النزيه	نشرت في الزمان في ٧/١١/١٩٣٣
الألماسة المزيفة	نشرت في الزمان في ١٤/١١/١٩٣٣
حماسة ساعة	نشرت في الزمان في ٢١/١١/١٩٣٣
العشاء	نشرت في الزمان في ٢٨/١١/١٩٣٣
الحب الهمجي	نشرت في الزمان في ٢/١٠/١٩٣٤
الكهرباجي	نشرت في الشباب في ١٠/١٢/١٩٣٦
الدريبة	نشرت في الشباب في ١/١/١٩٣٧
عم علي الرايس	نشرت في الشباب في ١٦/١/١٩٣٧
طاحونة الأمس وطاحونة اليوم	نشرت في الشباب في ٢٢/١/١٩٣٧
الحاج الكيلاني الجزار	نشرت في الشباب في ٥/٢/١٩٣٧
تذكرة الترام	نشرت في الشباب في ١٩/٢/١٩٣٧
كبش العيد	نشرت في الشباب في ٢٦/٢/١٩٣٧
تونس تغنى	نشرت في جريدة السردوك في ٧/٤/١٩٣٧

ومعنى هذا، أن ما نشر لبيرم تحت مسمى «القصة القصيرة» يزيد عن ثلاثين قصة، والحق، أن هذا الرقم، يمكن أن يزيد كثيراً، من خلال القراءة المتأنية، لما كتب بيرم فى هذه الفترة، مما صنفه «الجابرى» تحت اسم المقالات.

ومن ذلك واحدة تحمل اسم «رواية» و«مؤتمر السمك» وفى الجلاز «مقبرة مدينة تونس».

وهذه الأعمال لها كل مقومات القصة القصيرة، ولكننا نضيف إليها أيضاً ما كتبه عن «إمام العبد» وسلسلة مقالات «الأبطال بالريشة والقلم» فهذه

لوحات قصصية بالمعنى الدقيق للكلمة، تتناول هذه الشخصيات، تناولاً قصصيّاً، فتجسم لنا خصائص حركاتهم وسكناتهم، بصورة نابضة بالحياة، من خلال التكيف على موقف أو بعض المواقف، التى تصاغ فى قالب الحكاية أو القصة.

وربما جاز أن نتوقف كذلك ولو قليلاً، أمام ما كتبه بيرم التونسى تحت عنوان: الفن القصصى «فى جريدة الزمان التونسية فى ٢٠ يونية ١٩٣٣» وفيها يحدد بيرم.. بناء القصة.. فى مراد ثلاث وهى:

الغاية.. التى يقصدها الكاتب من قصته.. والعاطفة.. التى تحفزه الكتابة وتظهر حادة أو هادئة أو عادلة أو جائرة.. ثم الأسلوب.. الذى يقدم به قصته للقراء وللمسرح.

فالغاية.. هى أن يعرض عليك المؤلف.

إما صفحة من التاريخ، كنت تتلهف حسرة، على أنك لم تر عصرها ولم تعاشر أهلها، كما تسمع مثلاً عن عصر المأمون، أو قصور جعفر البرمكى.

أو يذهب بك المؤلف فى الرواية، إلى بلد ناء تشعر بالشوق إلى زيارته، ورؤية ملوكه وشعوبه.

أو يكون غرضه من قصته، أن يقدم أشخاصاً إما أن يلبسهم أبهى حلل الإنسانية، ويزفهم إليك مقربين يجعلهم أمثلة للإنسان الكامل، الذى يجب أن يكون.

وإما أن يمسخهم أبالسة مجرمين يعرضهم عليك بسوءاتهم، لتتقيهم أو لتحذر أن تكون على شاكلتهم.

وفى النهاية يتوصل بهذا، إلى معالجة مشكل اجتماعى.

والمؤلف القصصى.. يختار أشخاصه من الموجودين على ظهر هذه الأرض، وأحياناً يخرجهم من بطنها، فإن أعوزه هذا أو ذاك، اخترع من عنده ليكمل النقص الموجود فى الحياة، وكلمة التكميل هنا، هى الغاية التى يقصدها المؤلف فى كل عمله، وللمؤلف أيضاً، أن يخترع الحوادث إذا كانت حوادث الحياة لا تسعفه.

والعاطفة.. هى التى تحرك أشخاص القصة، وتخلع عليهم الألوان البهيجة أو البغيضة، وتخلق الحوادث فى القصة خيراً أكانت أو شراً، ورب مكان أو شخص يبغضه بالإجماع، ولكن الكاتب، يرى فيه ما لا يرى الناس، فيعطف عليه، ويظهر ما فيه من محاسن ضافية، أو بعكس ذلك.

بقى الأسلوب.. الذى يعرض به الكاتب قصته، وفيه تتجلى قدرته وموهبته، أو قل إن القصة كلها هى الأسلوب، فأنت تعرف حوادث الحياة معرفة تامة، ولا حاجة بك إلى رؤيتها مرة أخرى فى كتاب أو على المسرح.

ولكن.. الكاتب.. بأسلوبه.. يحببها إليك، ويعرضها عليك عرضاً جديداً.

والأسلوب.. وحده، هو الذى يميز الكاتب عن الآخر، ويصرفك عن القصة إلى الأخرى، وهما من مادة واحدة.

والملاحظ، أن بيرم، جعل تحت مسمى «الأسلوب» كل ما يتعلق بالجوانب الفنية «التكنيكية» كالحبكة والعقدة وما إلى ذلك، وكان المتوقع أن يلح على واقعية الموضوع من منطلق أن الواقعية هى المحور الأساسى فى سائر إنتاجه، لكنه فضل فيما يبدو، الاكتفاء بالخطوط العامة الموضوعية، دون أن يتدخل كثيراً، ليعبر عن ميله الشخصى، أو انطباعاته الذاتية.

وهذا الذى ذكرناه يمثل إنتاجه القصصى ـ أو بعضاً منه ـ فى مرحلته التونسية، والدلائل تؤكد على أنَّ هناك أيضاً، أعمالاً قصصية كتبها قبل نفيه، لكنها لم تجمع، كما أنها لم تدرس ـ بحسب ما نعلم ـ فى الدراسات

المختلفة التى تناولته، والتى ركزت فى معظمها على حياته وأزجاله.

ومما يدل على ذلك، أن «المجلة الجديدة» التى كان يصدرها «سلامة موسى» بالقاهرة فى الثلاثيسيات.

نوهت بالطابع الواقعى المحلى «المصرى» لقصص بيرم.

قائلة إن من التناقضات، أن المؤلف الوحيد، الذى فتح هذا الباب على مصراعيه «أى مصراع التعبير عن الواقع المصرى» وبرهن على مقدرة جديرة بأن تخلده، بدلاً من أن يقدر التقدير الواجب، قد ألقى اسمه فى.. زوايا النسيان، وعلى كثرة المحاضرات التى 'لقيت، والمقالات التى كتبت للتعريف ببعض القصاصين، فإن أحداً من الكتاب والخطباء.. لم يشر إليه بكلمة.

وهذا القصاص.. هو محمود بيرم التونسى.. الذى يكتب بالعامية ويصور عقلية أولاد البلد، وعاداتهم أبلغ تصوير، ثم يكتب عن مساوى الطبقات الوسطى والغنية، فلا نجد فى كتاباته نفوراً أو مسخاً، ويضعه فنه بسهولة فى رأس قائمة القصاصين.

بل من التساهل أن يوضع بعده شخص آخر، ومن الخسارة التى لا تقدر، أن ينقطع عن الكتابة، بعدما ثابر على مواصلة بعض الجرائد زمناً طويلاً.

وهذه العبارة جعلت د. الجابرى يلح على «ريادة» بيرم لفن القصة القصيرة فى مصر، ولا شك أن مسـ'لة «الريادة لا تخلو عن غلو، وخاصة أن عبارة «المجلة الجديدة» إن صحت، فإنها تشير إلى ريادة بيرم فى التعبير عن الطابع المحلى المصرى المكتوب بالعامية «وكان سلامة موسى صاحب «المجلة الجديدة» من أكبر دعاة العامية».

والشىء الثابت، أن للقصة القصيرة فى مصر رواداً كثيرين، بدأوا فى

التعبير عن الواقع المصرى، فى الفترة التى كان فيها بيرم يكتب أولى تجاربه بالشعر وبالزجل أى فى فترة ما قبل ثورة ١٩١٩ ببضعة أعوام، ويكفى أن نذكر مجلة «الفجر» ذات الطابع التجديدى، وما نشرته من قصص لمحمود طاهر لاشين، وأحمد خيرى سعيد، وعيسى عبيد، وشحاتة عبيد، فضلاً عن محمد تيمور، فى «ما تراه العيون» والمجموعات الأولى لمحمود تيمور، وكانت تغوص فى صميم الواقع المحلى، وتتمثل فيها خصائص الاتجاه الواقعى.

وأيّاً كان الأمر، فإن إنتاج بيرم فى القصة القصيرة مما يحتاج إلى تحليل طويل، وخاصة أن من بين هذه القصص ما التصق بالبيئة المصرية، ومنها ما استمد مادته من أيام المنفى فى باريس، ومنها كذلك ما اعتمد على تصوير البيئة التونسية، كذلك فإن بناء هذه القصص يتفاوت، تبعاً لطبيعة التجربة المعالجة، وما أكثر ما عالج بيرم فى قصصه من تجارب.

ففى القصة الأولى، على سبيل المثال ـ التى تحمل اسم «رسالة الغفران» تتبدى صياغة «بيرمية» لرسالة «أبى العلاء» الشهيرة تعتمد على «إعادة التصور» من ناحية، كما تعتمد على ما يمكن أن يسمى بالـ «بارودى» أو الصياغة الساخرة، لنص يتسم بالوقار، كما كان يفعل «حسين شفيق المصرى» فى قصائده «الحلمنتيشية» التى كتبها على غرار المعلقات، والقصائد التقليدية الشهيرة وكما فعل «ابن سودون» من قبلهما عندما «عارض» القصائد الجادة «الكلاسيك» بقصائد ضاحكة عابثة ساخرة.

لجأ بيرم مرة أخرى للتراث فى قصة «طاحونة الأمس وطاحونة اليوم» التى استهلها بأن «المرأة واحدة فى كل بلد وكل زمن». تروى لنا كتب الأدب حكايات عن العاشقين، وما يحل بهم من المصائب، ولكونها متشابهة، نروى واحدة منها، وهكذا تبدأ الحكاية عن هذا الفتى البغدادى، الذى حاول أن

يراود زوجة فاضلة عن نفسها فأخبرت زوجها بالحكاية، فما كان منهما إلا أن رسما معاً مؤامرة لإذلاله، وهكذا يتسلل إلى بيتها فى المساء، فتدفعه إلى الطاحونة، على زعم أن زوجها جاء على غير موعد، وتدعوه لأن يربط نفسه ليدير الطاحونة بدلاً من الحمار، وهكذا يظل يدور ويدور طول الليل، حتى طحن عشرات الجوالات من القمح ومع اقتراب الفجر أطلقت الخادمة سراحه.

وبعد أسابيع جاءت الخادمة للعاشق تقول:

ـ إن سيدتى تقرؤك السلام وتقول لك..

فقاطعها قائلاً: هل فرغ دقيقكم؟

ويأتى فى القسم الثانى.. من القصة.. التطبيق على العصر الحديث، من خلال امرأة الجزار، الذى يطاردها أحد الرقعاء، فتستدرجه لكى ينال «نصيبه» من الزوج، لتأتى الحكاية بأن «لكل زمن عقوبة».

وربما كانت قصة «بعد الميعاد» خير ما يمثل براعة بيرم، فى القدرة على التقاط الحدث، الذى يبدو وكأنه لوحة أو تسجيل لموقف مَّا، فإذا أمعنت النظر فيه، بدا لك واضحاً، كيف أن هذا الموقف البسيط، يكشف عن طاقة ضخمة من الكشف عن السلوك البشرى، وما يتحرك فى نفوس الناس، من مشاعر متضاربة، وما يمرون به من نزوات توزع بين الخير والشر.

وهذا الذى قلناه، يتشكل أمامنا شيئاً فشيئاً، من خلال حكاية بسيطة، تبدأ فى إحدى دور السينما، حيث يجلس فى أحد «الألواج» شاب سورى ممتلئ الجسم يتسم بالوسامة والثراء، أما «اللوج» المجاور ففيه عائلة مصرية تضم الزوج والزوجة وابنته فى السابعة، وخادمة تحمل على ذراعيها طفلاً آخر.

وعندما تنطفئ الأنوار، تمتد يد المرأة، فى لحظة ترق، لتلامس يد الشاب،

بعد قليل يكتب لها ورقة يدسها فى كفها، يدعوها لأن تنظره فى الغد أمام سينما «الكوزموغراف» فى العاشرة، وشعر بالظفر، وهو يقارن بين نفسه وبين الزوج «الغلبان» الدميم ـ بعد قليل ـ تكتب له هى أنها تفضل اللقاء فى الساعة الثانية ويأتى الغد، فتعمل بهمة فى المنزل، زوجها ينام بعد الظهر ولا مشاكل فى الخروج، تركب عربة تتوقف بها أمامه ليركب وهو صامت ـ تمضى العربة إلى الجزيرة والعاشق «الشامى» قد ارتخى على مقعد العربة، ووضع قدميه فى ظهر الحوذى، وأخرج عجيزته الضخمة فى الهواء، ومد ذراعه خلف ظهر السيدة، وجعل يعبث فى جسمها فى بلاهة وبرودة.

ومضت المركبة عبر شوارع المدينة، حتى يسألها بعد حين، إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

فقالت: سأخبرك حالاً.

وأشارت للحوذى بالرجوع، ولما قاربت المركبة مخزناً كبيراً.

قالت للشامى: أرجوك أن تسمح لى بالنزول لشراء بعض أدوات التوالت، ودخلت المخزن، وبعد ربع ساعة، كانت فى بيتها أمام سرير زوجها النائم، فلم يشعر هذا الزوج إلا وامرأته تطوق عنقه، وتنهال عليه بالقبلات تارة وعلى أولادها تارة أخرى، ولا يدرون سبب ذلك».

وهكذا انتهت القصة.

وهذه النهاية البسيطة، تأتى شديدة الحساسية، فى التعبير عن الصحوة، لحظة الزلة التى هوت فيها الزوجة، والتى أفاقت منها ـ لحسن الحظ ـ فى سرعة.

وقد رسم بيرم التونسى أبعادها فى براعة وبساطة، وتحرك قلمه فى خفه، وهو يجسم صورة الشاب، الممتلئ وسامة ودسامة، وثقل ظل، والمرأة التى

تلتفت إلى نفسها، فتحس بأن ما انزلقت إليه شيء لا طعم له.

وأجمل ما فى القصة، أن بيرم لم يخطب فيها، أو يعظ.

ولكنه ترك الموقف ينطق على سحيته ببساطة وفى فن.

من كل ما قلناه، نلخص إلى أن بيرم، كان بارعاً فى كثير من قصصه القصيرة، ونعتقد أن طاقته وطبيعته وطابع أسلوبه، كل ذلك كان كفيلاً، بأن يجعل منه واحداً من قصاصينا المبدعين، إلا أن مجالات الغناء.. والمسرح الأوبريتى.. والزجل، هو الذى استولى عليه فى النهاية، حتى طغى على سائر ما له من كتابات فى القصة وغيرها.

■■■.

obeikandl.com